القسم الثاني

الصيد والحرب

الفصل الثاني والعشرون
عليّ «الحامي»

والآن انتهت هذه الأيام الرائعة مع الرولة، وتوجب عليّ أن أودعهم لبعض الوقت، لأنني عقدت العزم على زيارة الفدعان والقبائل الأخرى التي تتجول في صحراء ما بين النهرين وشمال سورية. كان الكثير من زعمائهم أعداء ألداء للأمير فواز، وفي بعض الأحيان يتحاربون فيما بينهم. ولكنني عرفت بعضها من الأيام الخوالي. أما بالنسبة للآخرين فقد علّقت آمالي على القواعد المرعية للضيافة البدوية. كما أملت أن أجد على الفرات رفيقاً مناسباً تؤهله معرفته للبلاد وصداقته مع القبائل ليكون دليلاً وحارساً لي في نفس الوقت. ولمساعدتي في هذا الخصوص زودني الأمير فواز برسالة شخصية إلى هاجم باشا الذي كان عندئذ زعيم القسم الأكبر من الفدعان في الجزيرة بين دجلة والفرات، بينما اقتنع ابن مهيد بزعامة الأقلية غرب الفرات في سورية. كان فواز وثيق الصلة بهاجم باشا وعلى الرغم من أن هذه الصلات الوثيقة لم تمنع الزعيمين من الانغماس في الغزوات والحروب المتبادلة كلما سنحت الفرصة.

نصحني الأمير فواز بالذهاب أولاً إلى حلب والاتصال هناك بوكيل هاجم باشا الذي سيؤمن إيصال رسالته، كما سيؤمن لي رفيق سفر موثوق، فعملت

بنصيحته. لم أزر حلب منذ عام ١٩١٦. في ذلك الوقت حاولت عبثاً إيجاد أبناء شيخ يدعى أحمد حافظ الذي يعرفه قراء كتاب هومر دافنبورت (بحثي عن الحصان العربي ـ نيويورك ـ ١٩٠٨) ومن أحمد حافظ هذا اشترى دافنبورت (الذي تعرفت أخته في كاليفورنيا) سبعة وعشرين حصاناً عربياً في عام ١٩٠٦.

بدأت مهمتي الأولى لدى وصولي إلى حلب وهي إيجاد الوكيل، فقادتني الإرشادات إلى بناء قديم (من القرون الوسطى) قرب القلعة. وفي مدخل البناء قامت بوابة خشبية ضخمة عليها مسامير حديدية كبيرة. ومن فناء البناء خلف البوابة وصلتني لهجات البدو، فطرقت على البوابة عدة مرات دون أي جواب. وفجأة انفتحت البوابة الضخمة مترافقة بصرير المفصّلات، وخرج منها أربعة فرسان مسرعين كادوا أن يرموني على الأرض لولا أنني وقفت منكمشاً أمام أحد الأعمدة الحجرية. تابعت بنظري المذهول هذه الكوكبة من الفرسان التي اختفت في سحابة من الغبار قرب المتاريس البارزة للقلعة القديمة.

عندما عدت ببصري إلى البوابة وجدت بدوياً منتصباً أمامي في المدخل، قامته أطول من المعتاد بالنسبة لقومه (أكثر من ١٨٠ سم) وهو يرمقني بنظرات متفحصة «دون أن يرف له جفن» ودون أن يرد تحيتي. وفي النهاية وضع ذراعه حول كتفي ببرودة وجذبني إلى الداخل بطريقة محببة، شدّ بذراعه الآخر سلسلة طويلة صدئة أقفلت البوابة.

وقع نظري على خان جعلني أتصور نفسي أيام الخلفاء. فالفناء لم يكن مرتباً ولكنه أفضل من كثير من الخانات التي رأيتها في إستنبول وبغداد. تناثر في المكان بصورة فوضوية ورضا هادئ مجموعة مختلطة من الجمال والخيول والحمير والماعز والغنم. وبتكاسل أكلت الحيوانات الشعثاء الهزيلة التبن المقدم لها على الجلود البالية، ورعاة الجمال المتدثرين بعباءاتهم البالية جاثمون على الأرض، والأطفال القذرون تقلبوا بصخب فوق سنامات الجمال واندفعوا بين سيقانها، بينما الحيوانات تتحمل هذه الرياضة بصبر وآذانها متهدلة وأعينها ترف. ورفرف الحمام بصورة دائمة بين الفناء والحصون والمتاريس القديمة، كما دارت

النسور بأجنحة ساكنة وهي تطير على انخفاض فوق الجدران ذات الشرفات وتَصْفِرُ من الجوع وعيونها تترصد اللحوم.

«من أين أتيت؟» سألني الرجل الضخم دون أية مقدمات وبقليل من الأدب. وضعت يدي في جيب صدري وأخرجت منها رسالة التوصية بعد أن تجعدت واتسخت كثيراً ومعها ـ بدون قصد ـ نسخة فوتوغرافية عن لوحة هومر **دافنبورت** الشهيرة «**وداع حالب للصحراء**». تظهر الصورة الشيخ أحمد حافظ وبعض أصدقائه البدو يشهدون رحيل الحصان العربي الشهير الذي قدمه حاكم سورية التركي إلى دافنبورت هدية. واختطف صديقي الطويل كلاً من الرسالة والصورة من يدي وأخذ يقلبهما بسماجة. وفجأة اكتشف في الصورة وجوهاً مألوفة. لم يكن بالإمكان أن تحدث صاعقة رعباً في الفناء الهادئ أكثر مما أحدثتها الصيحات المسعورة الصادرة عن هذا المارد لدى تعرفه المفاجئ أشخاص الصورة. لكن دهشته بدت مضحكة. فحاول ـ وهو يتلعثم بانفعالاته ـ أن يفهمني ويفهم الجميع بلا استثناء أنه وجد والده في الصورة، فتصرف كالمجنون، إذ أخذ يلوّح بذراعيه في الهواء ويرقص كدرويش منفعل، وأخذ يضحك ويبكي معاً. وترددت أصداء صوته العالي عبر الجدران حتى بدا كل شيء يتزلزل: لم يعد بإمكانه أن يهدأ وانتقل انفعاله إلى الحيوانات، مما جعل الجميع يشاركون في هذه الضجة وعندما خيّم الهدوء من جديد وجدت نفسي بين ذراعي صديقي الجديد والتفّت أكمام عباءته الفضفاضة حولي كأجنحة الملائكة الرحيمة، وأخذ يضمني إلى صدره ويقبّلني على الخدين صائحاً: «إنك ابن دافنبورت؟» بصورة جعلت صيحته أقرب إلى التصريح منها إلىالسؤال. وحاولت عبثاً أن أشرح له الأمر، ولكنه استمر في إصراره على أنني ابن دافنبورت ولم يكن مستعداً لسماع العكس.

وتدريجياً هدأ الرجل وأصبح التفاهم بيننا ممكناً. علمت أن اسمه علي بن أحمد حافظ، وأنه الابن الأكبر للشيخ الذي حاولت البحث عن عائلته عندما أتيت إلى حلب عام ١٩١٦. يا لها من ضربة حظ عندما يقدم لي القدر الآن في شخص وكيل هاجم باشا نفس الرجل الذي حاولت البحث عنه منذ أيام الحرب العالمية.

ولدى تذكره لرسالتي أخرجها من الجيب الكبير الذي حشرها فيه ـ أثناء انفعاله ـ مع الكثير من الأوراق الأخرى، وأعاد الباقي واتخذ مظهراً من الأهمية وقال: «أنا علي وكيل هاجم باشا ومحجم بن مهيد عقيد القوم». نظّف حنجرته وبصق كما لو أن خلق الله جميعاً تفاهات ثم تابع قائلاً: «وأنت بحاجة الى رفيق؟» فأجبته «وهذه الرسالة التي تحملها بين يديك ستنقلها مباشرة إلى الشيخ لأنها تحتوي رسالة شخصية من الأمير فواز». وقبل أن أستطيع منعه فتح عَليٌّ الرسالة وأخذ يقرؤها بصوت عال: «بسم الإله المعبود. السلام عليك يا حامي الحمى بمشيئة الله دع هذا الغريب يعيش في كنفك كابن لأبيك. صادقه كما لو كان عيني. احرس أخي وحافظ عليه عندما يقيم عندك أو عندما ترسله إلى أي شخص سواك، يا من تقف أمام الله وضميرك مرتاح. ليمدّ الله في عمرك وقوتك ولنعش إلى الأبد جنباً إلى جنب بصداقة دائمة».

عند هذه النقطة قطع علي قراءته بالدعاء الكثير ببركات السماء ونعمها على الأمير فواز. لم يساوره أي شك في أن الأمير الرولي الشاب يتمتع بهذه الفضائل والعواطف الرقيقة. وبدا أنه متأثر جداً فرفع صوته واستمر بالقراءة: «الحمد لله الرؤوف الوهاب الذي أسبغ علي ـ عبده الفقير ـ هذه النعمة القيمة: لقد وهبني الرحمن الرحيم الفرصة الثمينة لكي أخلص حليفك وأخانا برجس بن هديب سبعين فرساً». وقفز علي كما لو لدغته رتيلاء سامة. وبدلاً من الرحمات والبركات السابقة أخرج الآن من بين شفتيه سيلاً من اللعنات والسباب القبيح على رأس الأمير. وهاج ثانية كالمجنون. وشاركه في هذه النوبة البدو الآخرون واندفع المجنون ثانية، الرجال والحيوانات في الفناء. مما حوّل الفناء عاصمةجهنم. وفي نوبة غضبهم الوحشي بدأ الرجال يضربون الحيوانات المنفعلة والخائفة (الأغنام ـ الحمير ـ والماعز) بأسواطهم المرنة كما لو كان الزعيم الرولي المكروه نفسه بين أيديهم. وحتى أنا نفسي (الذي كنت السبب البريء لهذه النوبة من الجنون) أصبحت هدف أبشع توبيخات علي. كيف يمكن أن أرتبط بمثل هذا السفاح الشهير وقاطع الطريق المعروف؟ ومرّ الكثير من الوقت حتى

هدأ علي ثانية ومعه كلّ جمهوره، وبصوت مضطرب عاد لقراءة بقية الرسالة: «ليرحم الله أفكارك الحزينة، وليكن التفكير المتفائل في القضاء المحتوم عزاء لك ورحمة لروحك (لم أستطع تمالك نفسي من الضحك الصاخب عند سماع ذلك. مما جعل عليّاً يقطّب حاجبيه باشمئزاز) كل شيء زائل وكل شيء مقدر من الله. ولتبق جثة من يشك في شجاعة فرساني بدون دفن. أفعال الله ظاهرة وعلى ضوء هذه الأحداث المحتومة عليك أن تعترف بصدق كلامي. (قلت لنفسي: يا لها من فكرة رائعة أن يعتبر الله مسؤولاً عن سرقة السبعين فرساً. ليبارك الله النساء الجميلات والفضيلات اللواتي في حرز أخيك (طرفة أخت فواز). ليكن موقع الأجرام السماوية أفضل دليل لك. إن الله على كل شيء قدير».

غرق علي في التفكير وبدا كأنه منزعج من آلاف الأفكار المتضاربة. ولكنه في النهاية قبل باحترام وجهي. هذا المثال النموذجي من الدبلوماسية البدوية. واضطر سرّاً للإعجاب بهذا الاحترام الذي يبديه المرء في الجزيرة العربية حتى لألد أعدائه.

أمسك علي بيدي على الرغم من أن الغضب ما زال ظاهراً في عينيه ولكن صوته بدا مقبولاً عندما قال: «هذه الرسالة ـ يا صديقي ـ تساوي توصية من إبليس». وبتكشيرة من الاحتقار رمى الرسالة في النار. تمكنت في الوقت المناسب من اختطاف هذه الورقة الموقعة من اللهب. وفي الحقيقة لا علي ولا أنا تجرأنا على تقديم الرسالة إلى أي من زعيمي الفدعان.

ولسروري العظيم عرض عليٌّ نفسه ليكن رفيقاً في رحلة صيد إلى الجزيرة ـ خلال يومين بسيارة فورد قديمة تحملنا إلى الفرات.

* * *